

الوصيلة إلى الحبيب  
في  
وصف الطيبات والطيب



مصادر ودراسات في تاريخ العلوم العربية



مكتبات جامعة حلب  
مركز التراث الجامعي العربي

# الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب

تأليف

ابن العديم

٥٨٨ هـ - ٦٦٠ هـ

تحقيق

سليمي محجوب  
دريّة الخطيب

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



## تصدير

لقد رعى معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب منذ نشأته تراث الفكر العربي القومي، فكان له باع طويل في احتضانه ورعايته ودفعه، وذلك حين أغنى كنوز المعرفة بما كانت تفيض به جهود الباحثين وعطاءاتهم، فيندفع بايمان وعزيمة لنشر وطبع ما يحققونه من مخطوطات عربية لاتزال تزخر بها مكتباتنا العربية ومكتبات العالم ومتاحفهم. وهو بعمله هذا وبالمهام القومية الرفيعة التي اتخذها على عاتقه، يحيي التراث العربي ويجعل الحاضر والمستقبل يتألقان في روعة الماضي فينقل للأجيال الحاضرة والقادمة حضارة أجدادهم وعلومهم ومعارفهم ليهبوا للتاريخ الحضاري المستقبلي للأمة العربية وللتقافات العالمية في جميع الأصقاع.

وتمشياً مع هذا الهدف في تحقيق المخطوطات وطبعها لتكون بناءً فكرياً للباحثين والقراء واخراجها بأبهى صورة وأوضح عبارة، فإن معهد التراث يتقدم بكتاب تراثي جديد للمهتمين بتاريخ العاوم العربية، ليكون رافداً من روافد البحث في تراثنا العربي الأثر الغزير.

إنه كتاب « الوصلّة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب » لمؤلفه ابن العديم الحلبي ٥٥٨-٦٦٠هـ. وقد قام بتحقيقه الاستاذتان الباحثتان سليمى محبوب ودرية خطيب، وهما ممن يشهد لهما بالكفاءة. وقد كان عملهما شاقاً وتطلب منهما جهوداً كبيرة.

وكتاب « الوصلّة » هو واحد من الكتب التراثية الهامة يبحث في الطب، والصناعة الدوائية والغذائية والعطورية، ويتحدث عن الأطعمة والأغذية وطرق صناعتها وحفظها وفوائدها الصحية، كما يتحدث عن تركيب بعض الأدوية واستطبابتها وفوائدها، وعن صناعة العطور والصابون وتنقية المياه وتقطيرها.

ولقد قدمت لهذا الكتاب الأستاذة سليمة محبوب ببحثاً تاريخياً مستفيضاً تناولت فيه تاريخ الأطعمة عند العرب خلال العصور المختلفة منذ الجاهلية حتى العصر الأيوبي الذي هو عصر ابن العديم . واستعرضت في بحثها أطعمة العرب في جاهليتهم وتطورها خلال العصور اللاحقة ، وما أخذه العرب من الأقاليم التي دخلت الإسلام من أطعمة مختلفة بقي بعضها يحمل اسمه الأعجمي وبعضها عُرِّب . وتحدثت عن آداب الطعام عند العرب وما يؤخذ على الآكل من عيوب . كل ذلك بأسلوب أدبي جمع بين الشعر والقصة والخبر والتاريخ ووثقت بحثها بالمصادر الكثيرة التي اعتمدت عليها في هذا الموضوع الواسع .

وإدارة معهد التراث ، إذ تتقدم بالشكر الجزيل للاستاذين المحققين لما بذلناه من جهود جبارة لإغناء المعرفة ، وإحياء التراث العلمي العربي ، تتمنى أن يسد هذا الكتاب فراغاً في المكتبة العربية ، وأن يكون مرجعاً وملاذاً لمن سيقضي أثرهما في تحقيق مثل هذه المخطوطات التي تبحث في الغذاء والدواء .

الدكتور

**خالد ماغوظ**

مدير معهد التراث العلمي العربي

ابن العديم

المولى صاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد هبة الله

٥٨٨ هـ - ٦٦٠ هـ

١١٩٢ م - ١٢٦٢ م

« كان محدثاً فاضلاً ، حافظاً مؤرخاً صادقاً ،  
فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً ، كاتباً محموداً ، درس وأفتى  
وصنف وترسل عن الملوك ، وكان رأساً في الخط  
المنسوب لاسيما النسخ والحواشي » .



## حياة ابن العديم

٥٨٨ هـ - ٦٦٠ هـ

١١٩٢ م - ١٢٦٢ م

« هو كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن عبد العزيز بن أبي جرادة المعروف بابن العديم العقيلي الحلبي<sup>(١)</sup> ». مؤرخ ومحدث من الكتاب . ينتهي نسبه الى أبي جرادة صاحب أمير المؤمنين علي - عليه السلام - وارتفعوا به الى ربيعة فعقيل ، ثم عامر بن صعصعة ومعاوية بن بكر بن هوازن ، وحفصة بن قيس بن عيلان ، ومضر بن نزار من معد بن عدنان ، والى عدنان ينسب معظم أهل الحجاز .

فابن العديم عربي في نسبه ، عدناني في أصوله ، وكان يدعى العقيلي نسبة الى قبيلة عقيل ، وكانت لآل جرادة محلة في البصرة « تدعى محلة بني عقيل<sup>(٢)</sup> » كما كان لهم قرى كثيرة في حلب . فكانت أسرة ابن العديم على جانب كبير من الغنى والثروة .

وهي لم تقع في فقر أو فاقة كما يمكن أن يفهم من اسمه ، وإنما كان هذا لقباً غلب عليه لاستعمال أحد أفرادها كلمة العدم في شعره والاكتثار منها .

قال ياقوت : « سألته أولاً : لم سميتم ببني العديم ؟ فقال : سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه . وقال هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا ، ولا أحسب الا أن جد جدي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة ، مع ثروة واسعة ونعمة شاملة كان يكثر في شعره من ذكر العدم وشكوى الزمان فسمي

(١) بروكلمان : ج ٦ ، ص ٧٥ (وانظر فوات الوفيات لمحمد بن شاكر بن أحمد الكشي ج ٢ - ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي : ج ٥ ص ٣٠٣ - والنجوم الزاهرة : لابن تغري بردي : ج ٧ ، ص ٢٠٨ - امرأة الجنان : ابن سعد الياضي : ج ٤ ، ص ١٥٨ - كشف الظنون : لحاجي خليفة : ص ٢١٤ ، ٢١٩ - وأعلام النبلاء للراغب الطباخي : ج ٢ ، ص ٣١٣ - المختصر في أخبار البشرين الوردية : ج ٢ ص ٢١٥ ) (وانظر أيضاً الأعلام للزركلي : ج ٥ ، ص ١٩٧ ) .

(٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم . نشر سامي الدهان .

بذلك ، فإن لم يكن هذا سببه فلا أدري ما سببه (١) ؟ » .

لقد عجز المؤرخون كما صعب على ابن العديم نفسه كما يقول أن يجد حلاً لهذا الغموض في التسمية ، على كثرة ما وقع له من كتب ومستندات . ومن يدري فلربما مرت العائلة بظروف صعبة خيم عليها الفقر والعدم لفترة طارئة أحب الصاحب أن يتناساها ويمحو سطورها من تاريخ أجداده .

ومهما يكن من أمر فإن أسرة ابن العديم كبيرة رفيعة الشأن عظيمة الجانب ، عزيزة المكانة . كان منها الشعراء والكتاب والفقهاء في الدولة المرديسية وما تبعها من رحاب الدولة النورية والصلاحية حتى كمال الدين بن العديم .

ولهذا قال ياقوت فيهم : « وبيت أبي جرادة بيت مشهور من أهل حلب ، أدباء وشعراء ، وفقهاء ، عباد ، زهاد ، قضاة ، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر ، وتالياً عن غابر (٢) » .

في هذا البيت العريق ولد الكمال بن العديم ، في بيت تولى أفراده منصب القضاء والمناصب العالية ، من أسرة عريقة وجيهة في حلب ، أملت بعناصر الثقافة وأخذت من كل علم بطرف . فنظمت في الشعر ، وشاركت في القصة ، وأجادت في الخط .

فليس غريباً أن تُنسبت هذه الأسرة ابن العديم ، وينشأ متحلياً بما تحلى به آباؤه وأجداده . فكان كما يقول ابن شاعر الكتبي : « محدثاً فاضلاً ، ومؤرخاً صادقاً ، فقيهاً مفتياً ، ومنشئاً بليغاً ، وكاتباً محموداً ، ودرس وأفتى وصنّف ، وترسل على الملوك ، وكان رأساً في الخط لاسيما النسخ والحواشي (٣) » .

ولد كمال الدين بن العديم في ذي الحجة (٤) ، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ولما بلغ سبعة أعوام حمل الى المكتب ، حيث ظهر نبوغ الطفل وراح يكتب البسمة وهو صغير ،

(١) فوات الوفيات ، لابن شاعر الكتبي : ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٢) معجم الأدباء : ج ٥ ، ص ١٦ .

(٣) فوات الوفيات : ابن شاعر الكتبي : ج ٢ ، ص ٢٠١ .

(٤) في ابن خطيب الناصرية أنه ولد في العشر الأول من ذي الحجة .

ويرسم قريباً من خط المعلم ، فتفرس فيه الناس النجابة والذكاء . وفي التاسعة من عمره ختم القرآن . وقرأ بالعشر وعمره عشر سنين ، « وأحب الخط بتشجيع من والده الذي لم يكن خطه بالجميل (١) » فأتقن هذا الفن اتقاناً تاماً ولهذا يقول ياقوت فيه :

« وأما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقلة لأبي عبد الله بن مقلة (٢) ، وبدر ذو كمال عند علي بن هلال (٣) » .

كما أشاد ياقوت بثقافة الكمال ابن العديم الواسعة ، وتعلقه بمختلف أنواع العلوم منذ نعومة أظفاره . فقال : « لم يعتن بشيء الا وكان فيه بارزاً ، ولا تعاطى أمراً الا وجاء فيه مبرزاً » .

وفي الثماني والعشرين من عمره ولّي ابن العديم التدريس في مدرسة الخلاوية بحلب ، ثم ولّي القضاء ، فكان فيه كأبيه ، يفصل بين الناس في أمور دينهم وديناهم وزار مصر وبغداد واجتمع بالملوك والوزراء والعلماء ، واتصل بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ولد صلاح الدين الأيوبي ونشأت بينهما صداقة قوية وكان لديه من المقربين .

وعندما هاجم التتار حلب عام ٦٥٧ هـ . رفض ابن العديم منصب القضاء الذي عرضه عليه هولوكو ، مترفعاً من أن يجعل نفسه في خدمة الأعداء ، وهرب مع سيده الى « برزة » وهي ضاحية في أطراف دمشق . ومن هناك سافر الى مدينة غزة في فلسطين ومنها الى مصر .

وفي مصر لقي ابن العديم من الحفاوة والإكرام أكثر مما كان يلقاه في موطنه في بلاد الشام ، وعاش بعيداً عن حلب الشهباء التي كانت تظللها سحابة داكنة من الظلم

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ج ١٦ ، ص ٤٢ .

(٢) الرجل من أعلام الخط العربي : فهو الوزير أبو علي محمد بن علي بن الحسين ، ومقلة لقب أبيه ، ولد في بغداد سنة ٢٧٢ هـ . ونشأ نشأة فاضلة ، وتميز بعلم الاعراب وحنظ اللغة وبلاغة المنثور والمنظوم ، وجود الخط تجويداً بلغ الغاية في الحسن حتى ضرب المثل به ، واستوزره المقتدر بالله ، والقاهر بالله والراضي بالله ، وتعرض لمحن قاسية انتهت بموته في السجن سنة ٣١٨ هـ .

(٣) ابن الهلال : هو أبو الحسن علي بن هلال البغدادي ، الكاتب المشهور بابن البواب ، هذب طيقة ابن مقلة ونقحها ، وكساها طلاوة وبهجة ، وخطه في نهاية الحسن ، توفي ببغداد في سنة ٤٢٣ هـ . وقيل سنة ٤١٣ هـ ( انظر خريدة القصر وجريدة العصر لعهد الدين الاصبهاني ج ١ ، ص ١٧٨ ط : منشورات وزارة الثقافة والارشاد ) .

## والتكبات .

ولما علم أن التتر قد هزموا في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وأن المسلمين أبادوهم وأجلوهم عن حلب سنة ٦٥٩ هـ . عاد ابن العديم الى بلده وأهله ، ويظهر أن الصاحب لم يحتمل ما رآه في حلب من دمار وخراب وآثار لوحشية لم ترحم ، فقرر بعد أن بكى حلب في شعره أن يرحل عنها ويعود ثانية الى مصر . وهناك عاش في القاهرة لكن المنية لم تمهله طويلاً ، فهصرته بعد عام من عودته حيث كانت وفاته في العشرين من جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ . ودفن بسفح المقطم . وانتقل الخبر المؤلم الى دمشق فحزنت عليه حزناً عميقاً « وصلي عليه صلاة الغائب رحمه الله (١) » .

تلقى ابن العديم ثقافته على عدد من كتاب ومشايخ عصره . فكان أبوه المعلم الأول له . فقد عني بابتنه عناية فائقة . دفعه الى التحصيل والتعليم منذ حداثة سنه كما رأينا . وشجعه على اتقان الخط الجيد ، فكان يريه خط ابن البواب (٢) ويطلب اليه تقليده حتى كان له ما أراد . وعمل على توسيع أفقه ومداركه فكان يصطحبه معه في رحلاته وأسفاره . صحبه إلى بيت المقدس مرتين أولاهما في سنة ٦٠٣ هـ . وعمره خمس عشرة سنة ، وثانيتهما في سنة ٦٠٨ هـ . وعمره ثماني عشرة سنة . وجمعه بالمشايخ في القدس ودمشق فأفاد منهم وتعلم . ثم رحل به الى العراق والحجاز فكانت رحلاته الأولى هذه جزءاً من ثقافته وعلمه .

كذلك نهل ابن العديم من مختلف العلوم والفنون ، وأخذ العلم من مشايخ عصره وأعلام زمانه . فقد حفظ اللمع وقرأه على شيخ حلب الضياء بن دهن الحصا ، وحفظ « القدوري » في فقه الحنفية (٣) .

(١) ذيل الروضتين : ص ٣١٧ ط : مصر سنة ١٩٤٧ .

(٢) هو علي بن هلال الإمام الأستاذ أبو الحسن صاحب الخط المنسوب المعروف بابن البواب ويقال خط منسوب ، ذو قاعدة . تقدمت وفاته سنة ٤١٣ هـ .

(٣) القدوري من أعيان عصره توفي سنة ٤٢٨ هـ . ولد ومات في بغداد ، وانتهت اليه رئاسة الحنفية في العراق . وصنف المختصر المعروف « بالقدوري » في الفقه .

وسمع بجلب عن عمر بن طبرزد<sup>(١)</sup> وافتخار الدين عبد المطلب الهاشمي<sup>(٢)</sup> وبهاء الدين يوسف بن شداد قاضي حلب<sup>(٣)</sup> ، وعبد الرحمن بن علوان وثابت بن شرف<sup>(٤)</sup> وابن روزيه وجماعة كثيرة غيرهم .

وسمع بدمشق من أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي<sup>(٥)</sup> وأبي القاسم عبد الصمد بن القاضي الحرستاني<sup>(٦)</sup> وابن طاووس<sup>(٧)</sup> والحسن بن صصري<sup>(٨)</sup> وابن البناء ، والبهاء عبد الرحمن ، وابن المنى ، وأحمد بن عبد الله العطار ، والعماد ابراهيم بن عبد الواحد . وسمع ببغداد من عبد العزيز بن محمود بن الأخضر .

وهؤلاء جميعاً مشعل العلم لعصره ، وموارد الثقافة في أيامه ، وكلهم عالم ضليع ، ألف واشتهر وكان حجة في علمه ، مما أتاح لابن العديم أن يحصل على علوم عدة ودراسات متنوعة من لغة وأدب ومنطق . يشهد له بذلك مؤلفاته الكثيرة التي تفيض علماً غزيراً ورواية كثيرة ومعرفة واسعة شاملة .

ففي كتابه « بغية الطلب » نجد ابن العديم الفقيه ، ونقرأ له الحديث المروي والأسناد الطويلة ، وفي « التذكرة » يطالعنا ابن العديم المنشيء البليغ والكاتب المترسل الفصيح . وفي مخطوطاته التي وصلت إلينا يبدو ابن العديم رأساً علماً في الخط . لذا قال فيه ياقوت :

- 
- (١) هو أبو حفص عمر بن محمد بن معمر بن يحيى البغدادي ولد سنة ٥١٥ وتوفي سنة ٦٠٧ هـ . انظر البداية والنهاية : لابن كثير في حوادث سنة ٦٠٧ هـ .
  - (٢) توفي سنة ٦١٦ هـ . ( انظر الطباق : ج ٤ ، ص ٣٤١ ) .
  - (٣) خلف الرجل كتاباً في سيرة صلاح الدين . ( انظر في ترجمته الطباق : ج ٤ ، ص ٣٨٣ ) .
  - (٤) انظر ترجمته في أعلام النبلاء ، الطباق : ج ٤ ، ص ٥٤١ .
  - (٥) انظر ترجمته في ذيل الروضتين ص ٩٥ ، ط : مصر . ولقبه تاج الدين توفي سنة ٦١٣ هـ .
  - (٦) في أكثر النسخ الخرساني . وهو تصحيف . توفي سنة ٦١٤ هـ . ورحل الى حلب . ( ترجمته في ذيل الروضتين ) .
  - (٧) هو جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس العاوي الحسيني . ت سنة ٦٧٣ هـ . وهو من فقهاء الإمامية ومحدثهم ، ( انظر الاعلام للزركلي : ج ١ ، ص ٨٢ ) .
  - (٨) في أكثر النسخ أنه « الحسين بن صصري » وهو تصحيف ، واسمه أبو المواهب الحسن بن أبي العظام بن محفوظ بن صصري الربيعي الدمشقي . من حفاظ الحديث . كان محدث دمشق . ( انظر الاعلام للزركلي : ج ١ ، ص ٢٤ ) .

قرأ الأدب وأتقنه ، ودرس الفقه فأحسنه ، ونظم القريض فجوّده ، وأنشأ النثر فزينه ،  
وقرأ حديث الرسول ، وعرف علله ورجاله وتأويله وفروعه وأصوله .

ومما لاشك فيه أن ابن شاکر الکتبي وياقوت قد وصفا ابن العديم أدق وصف ،  
ولم يبالغا فيما قالوا لأن آثاره ومصنفاته ومؤلفاته الكثيرة خير شاهد صدق على ما كان للرجل  
من باع طويل في النثر والفقه والحديث والشعر .

لذلك أخذ عن ابن العديم تلاميذ كثير ، منهم ابنه مجد الدين أبو محمد عبد الرحمن .  
وابن مسدي<sup>(١)</sup> وابن الحاجب<sup>(٢)</sup> وذكراه في معجميهما . وسمع منه الهمياني<sup>(٣)</sup> وذكره  
في معجمه ، وأنشد من شعره . وكذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن الحسين . وقد انتفع  
هؤلاء به وأصبحوا من مشهورى عصرهم في العلم والفضل ، يردهم الناس لينهلوا من بحر  
علمهم ومعرفتهم .

وابن العديم ناثر بليغ ، وشاعر مجيد في لغة قوية ، وبيان متمكن يقع من اللغة العربية  
موقع الفحول المبرزين .

ولأنصف الرجل في ميداني الشعر والنثر وأعطيه حقه ، لا بدّ لي من أن أقف وقفة  
لن تطول عند شعره وخطه . فترى ما كان للرجل في هذين المجالين من سبق وتفوق .

لقد نقل ياقوت نتماً من شعر ابن العديم ليدل على تفوقه في صناعة النظم والقريض .  
لكن ياقوت لم يرد الا شعر الشباب قبل أن يتجاوز الكمال سن الثلاثين . وهذا لا يمثل شعر  
ابن العديم الا في سن معينة . كما أن ديوانه المخطوط لم يعثر عليه . مع أن الطباخ قد ذكره  
في أعلام النبلاء وقال انه في الاسكندرية .

---

(١) هو محمد بن يوسف بن موسى الأزدي المهلبى . أبو بكر جمال الدين الأندلسي المعروف بابن مسدي ، أصله  
من غرناطة وسكن مكة الى أن توفي فيها . وقد لقبه ابن العديم في الحجاز لما رحل اليها . وأخذ عن ابن مسدي  
وسمع منه . ت سنة ٦٦٣ هـ . (الاعلام ج ٣ ، ص ١٠٠٥) .

(٢) هو جمال الدين عثمان بن أبي بكر يونس من كبار علماء العربية . ولد في أسنا من صعيد مصر ونشأ في القاهرة .  
وسكن دمشق . ومات في الاسكندرية وعاش من سنة ٥٧٠ - ٦٤٦ هـ . (انظر الاعلام للزركلي : ج ٢ ،  
ص ٦٢٩) .

(٣) هو الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الهمياني ت سنة ٧٠٥ هـ .

ولاشك أن ابن العديم قد طرق مختلف أبواب الشعر ، وضارع أقرانه من شعراء عصره . وشعره الذي وصل إلينا يعبر عن شاعرية صادقة وقوية .

ففي غزله يذكرنا برقة أبي فراس الحمداني ، وعفته ولياليه حيث يقول في رائيته :

وأهيفَ معسولِ المرأشفِ خلثته	وفي وجنتيه للمدامة عاصر
يسيل الى فيه اللذيد مدامه	رحيقاً وقد مرّت عليه الأعاصر
فيسكر منه عند ذاك قوامه	فيهتزُّ تيهاً والعيونُ فواتر
كأنَّ أميرَ النومِ يهوى جفونه	إذا همَّ رفعاً خالفته الحاجر
خلوتُ به من بعد ما نام أهله	وقد غارت الجوزاء والليل ساتر
فوسدته كفي وبات معانقي	إلى أن بدا ضوء من الصبح سافر
فقام يجر البرد منه على تقى	وقمت ولم تحلّلْ للإثم مآزر

ولابن العديم فخر قوي ، ولم لا يفتخر ، وهو ينحدر من أسرة عريقة غنية اشتهرت بالوجاهة والرئاسة طيلة عهود مختلفة . ومما قاله سالكاً نهج أبي فراس :

سألزمُ نفسي الصفحَ عن كل من جنى	عليّ ، وأعفو حسبة وتكرماً
وأجعل مالي دون عرضي وقاية	ولو لم يغادر ذاك عندي درهما
وأسلك آثار الألى اكتسوا العلى	وحازوا خلال الخير ممن تقدما
أولئك قومي المنعمون ذوو النهى	« بنوعامر » فاسأل بهم كي تعلمنا
إذا ما دعوا عند النوائب إن دجت	أناروا بكشف ما كان أظلمنا
وان جلسوا في مجلس الحكم خلتهم	بدور ظلام والخلائق أنجمنا
وان هم ترقوا منبرا لخطابة	فأفصح من يوماً بوعظ تكلمنا
وان أجنوا أقلامهم لكتابة	فأحسن من وشى الطروس ونمنا
بأقوالهم قد أوضح الدر واغتنى	بأحكامهم علمُ الشريعة محكمنا
دعاؤهم يجلو الشدائد إن عرت	وينزل قطر الماء من أفق السما
وقائلة : يا ابن العديم الى متى	تجود بما تحوي ، ستصبح معدماً
فقلت لها : عني اليك ، فإنني	رأيت خيار الناس من كان منعماً
أبى اللوم لي أصل كريم وأسرة	عقيلية سنوا الندى والتكرماً

هكذا كان كمال الدين من أسرة شامخة الذرى في العلم والدين والتقوى والندى . وهو واحد من هؤلاء الذين ورثوا المجد والعلم والمال . فسار على سنة آبائه وأجداده في الكرم والسخاء ليدفع عن أسرته ما يلحق بها اللوم والعار .

وهذا الفخر يذكرنا بقول أبي فيراس :

ولا راح يطغيني الغنى  
ولا بات يثنيني عن الكرم الفقى  
وما حاجتي بالمال أبغي وفوره  
إذا لم أفر عرضي فلا وفى الوقر<sup>(١)</sup>

وقد طرق ابن العديم أيضاً باب الإخوانيات . وله مع أصدقائه وأهله رسائل من الشعر ، ذكر منها ابن شاعر الكتبي قصيدة بعث بها الى ولده<sup>(٢)</sup> قاضي القضاة مجد الدين :

هذا كتابي الى من غاب عن نظري  
ولا يَمُنُّ بطيف منه يطرقني  
ولا كتاب له يأتي فأسمع من  
حتى الشمال التي تسري على حلب  
أخصه بتحياتي وأخبره  
أبيت أرعى نجوم الليل مكتئبا  
وليس لي أرب في غير رؤيته  
وشخصه في سويدا القلب والبصر  
عند المنام ويأيتني على قدر  
أنبأه عنه فيه أطيب الخبر  
ضنت على فلم تخطر ولم تسر  
أني سئمت من الترحال والسفر  
ففكرنا في الذي ألقى الى السحر  
وذاك عندي أقصى السؤل والوطر

وهي رسالة رقيقة تفيض من القلب الى القلب ، فيها شاعرية غير متكلفة وعواطف صادقة ، يخاطب فيها الأب ابنه بكل حب وعفوية وصدق .

ولكمال الدين رثاء كثير ، ولكن فقد أكثره مع ديوانه ، ولم يصلنا من هذا الرثاء إلا قصيدة واحدة بكى فيها حلب الشهباء بعد عودته اليها سنة ٦٥٨ هـ . وكانت المدينة قد تعرضت لغزو هولاءكو وقومه . وتركوا في آثارها بصماتهم الوحشية من خراب ودمار وقتل وفتك ودماء . فلم يتعرف على المدينة التي سطر تاريخها ، ولم يلق الأهل والأصدقاء

(١) ديوان أبي فيراس الحمداني : ج ٢ ، ص ٢١٣ طبعة سامي الدهان .

(٢) هو مجد الدين عبد الرحمن ولد سنة ٦١٤ هـ . وتوفي سنة ٦٦٩ هـ . كما في الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية للقرشي ص ٣٠٣ . وذكر في أعلام النبلاء للطباخ أن وفاته سنة ٦٧٧ هـ . ولعلها أقرب الى الصواب .

الذين أحبههم وأحبه . وهو يذكرنا في رثائه لمدينة حلب برثاء ابن الرومي لمدينة البصرة  
إثر ثورة الزنج .

يقول الكمال في القصيدة<sup>(١)</sup> :

وعن حلب ما شئت من عجائب  
غداة أتاها للمنية بغتة  
أتوها كأموج البحار زواخرا  
وقد عطلت تلك العشار وأذهلت  
فيالك من يوم شديد لغامة  
وقد درست تلك المدارس وارتمت  
وكل مهاة قد أهينت وهي سبية  
تنادي الى من لا يجيب نداءها  
فيا حلبياً أنى ربوعك أقفرت  
أنوح على أهليك في كل منزل  
ولكنما لله في ذا مشيئة<sup>(٢)</sup>

أحل بها ياصاح ان كنت تعلم  
من المغل جيش كالسحاب عرمم  
بيض وسمر والقتام نخيم  
مراضع عما أرضعت وهي هيم  
وقد أصبحت فيه المساجد تدم  
مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم  
وقد طالما كانت تُعزُّ وتكرم  
وتشكو الى من لا يرق ويرحم  
وأعيت جواباً فهي لا تتكلم  
وأبكي الدجى شوقاً وأسأل عنهم  
فيفعل فينا ما يشاء ويحكم<sup>(٣)</sup>

ومن شعر الصاحب كمال الدين مما كتبه على ديوان الشيخ أيدمر<sup>(٣)</sup> مولى وزير  
الجزيرة قوله :

وكنت أظن الترك تختص أعين  
الى أن أتاني من بديع قريضهم  
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم  
لهم ان رنت بالسحر منها وأجفان  
قواف هي السحر الحلال وديوان  
ويقر لهم هاروت فيه وسحبان<sup>(٤)</sup>

- (١) القصيدة من كتاب عقد الجمان للعيني . مخطوط . نسخة القاهرة ص ٤٨٦ .
- (٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لراغب الطباخ : ج ٢ ، ص ٣١٣ .
- (٣) هو علم الدين أيدمر بن عبد الله المحيوي فخر الترك عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى . (انظر فوات الوفيات) .
- (٤) النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي (ج ٧ ، ص ٢٠٨) .

هذا عن شعر ابن العديم أما عن خطه فقد طرز بوشيه كتب كثير ممن سبقه أو عاصره من الأدباء والعلماء . فقد كتب مخطوطة « المجتني لابن دريد » وهي من نفائس المتحف البريطاني في لندن . كما كتب « المغرب في حلى المغرب » فقد قال ابن سعيد المغربي مؤلف الكتاب : « كتبه بخطه للخزانة العلية الجليلة الصاحبية الكمالية عمرها الله ببقاء صدر الصدور الشامية رئيس الأئمة الحنفية ، سيد الوزراء والأصحاب الصاحب الكبير كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي أحيا الله بطول حياته دولة الفضائل وأبقى بدوام بقائه نجاح الوسائل مكمل تصنيفه بإعانتته علي<sup>(١)</sup> بن موسى .... » .

وقد سار خط ابن العديم في مشرق البلاد وغربها حتى قال عنه ياقوت : « شاع ذكره في البلاد ، وعرف خطه بين الحاضر والباد ، فتهاداه الملوك ، وجعل مع الآلى في السلوك<sup>(٢)</sup> » .

وقد طرز بخطه الكتب كما طرز الحارثي ، ولا يزال أثر من خطه في المدرسة الحلاوية بحلب حتى اليوم . يبدو في محراب جميل<sup>(٣)</sup> كتب أطرافه كمال الدين بخطه سنة ٦٣٤ هـ . للناصر ابن المظفر يوسف بن محمد الناصر .

كما أن كتاب « التذكرة » من خطه ، وبغية الطلب في تاريخ حلب كتبها بيده و « زبدة الحلب في تاريخ حلب » . نقل من خطه .

ونقل كتاب « الوصلة » من خطه أيضاً ، لأنه لا يختلف عن هذه المخطوطات في طريقة الرسم والكتابة<sup>(٤)</sup> .

وهكذا نجد أن خط ابن العديم كان مضرب المثل في الحسن والتنميق حيث قال ابن القيسراني معرضاً بهذا في شعره :

نجد معذبى آيات حسن - فقل ماشئت فيه ولا تخاشي

(١) المغرب : طبعة ليدن ص ٣ ، ومخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٠٣ بالورقة ٩٨ .

(٢) معجم الأدباء : ج ١٦ ، ص ٤٥ .

(٣) انظر صورة الخط وعبارته في أعلام النبلاء للطباخ : ج ٤ ، ص ٤٤٩ .

(٤) سامي الدهان : زبدة الحلب في تاريخ حلب .

ونسخة حسنه قرنت فصحت وها خط « الكمال » على الحواشي (١)

وابن العديم لم يكن شاعراً وناسخاً وخطاطاً فقط وإنما كان أديباً وعالمًا ، فقد صرف معظم حياته في خدمة العلم وماينفع العلماء فكان يؤلف حيناً ويجمع حيناً ، وينقل أحياناً من الكتب النادرة وغير النادرة ، ثم يستنسخ لغيره مما يقع اليه . وقد أورد ياقوت من مؤلفات (ابن العديم) التي وردت اليه وهو يكتب مقالة عن ابن العديم سنة ٦١٦ هـ . ولم يكن الرجل قد بلغ الثلاثين كتباً كثيرة وصل اليها بعضها وضاع بعضها الآخر ، فطبع أكثرها ومازال القليل منها مخطوطاً يحتاج لمن ينفض عنها عبار السنين .

يقول ياقوت : وصنف مع هذه السن كتباً منها :

- ١ - كتاب « الدراري في ذكر الدراري » وقد وصل اليها الكتاب وهو مطبوع .
- ٢ - كتاب « الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة » ولم يصل اليها الكتاب إلا من خلال « معجم الأدباء » .
- ٣ - كتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح » وذكره حاجي خليفة بعنوان « ضوء المصباح في الحث على السماح (٢) » صنفه للملك الأشرف لكن لم يعثر على الكتاب ولعله ضاع في جملة الكتب الكثيرة التي فقدت بعد مهاجمة التتر لمدينة حلب .
- ٤ - كتاب « في الخط وعلومه ووصف آدابه وأقلامه وطروسه » ولعل الكتاب لم يتم بل لعله ضاع في جملة الآثار المفقودة .
- ٥ - كتاب « الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجزي عن أبي العلاء المعري » والكتاب مطبوع ، ومنه نسخة قديمة جداً موجودة في دار الكتب المصرية لم تمسها يد النشر الحديث .
- ٦ - تذكرة ابن العديم ، وقد ألفها وهو في الخمسين من عمره تقريباً . والكتاب مطبوع .

(١) الأبيات من مقدمة الزبدة سامي الدهان . وقد وردت في النجوم الزاهرة : ج ٧ ، ص ٢٠٨ . (بوجه معذني) - وفي البيت الثاني وردت « قرئت » بدل قرنت وهذا أقرب الى صحة المعنى .

(٢) كشف الظنون : ج ٢ ، ص ١٠٩٠ .

٧ - « الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب » وفيه موضوعات طرقها في تذكرته وقريبة منها في النص والمعنى . وهو الكتاب الذي قمنا بتحقيقه ونشره .

٨ - كتاب « تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد » وهو كتاب لم يصل اليينا ، وهو واحد من بين الكتب والآثار المفقودة .

٩ - « بغية الطلب في تاريخ حلب » ويقع في أربعين مجلداً ، اخترقته المنية قبل كمال تبييضه<sup>(١)</sup> . وقد رتبته على حروف المعجم .

١٠ - « زبدة الحلب في تاريخ حلب » وهو كتاب مختصر لكتابه السابق في تاريخ حلب ، كتبه فيه على السنين بعد أن كتب على الحروف في كتابه «البغية» وهناك كتابان ذكرهما الشيخ محمد العرضي . وهو من رجال القرن الحادي عشر ونسبهما الى ابن العديم . وهما :

أ - الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار .

ب - مراد المراد ومواد المواد .

ولكننا نقف من الكتابين موقف الشك والريبة لأن هذا المصدر انفرد بذكرهما وهو مصدر متأخر واعلهما لأحد أولاد ابن العديم أو أحد أحفاده صنعهما في عصر متأخر . وهما بعيدان عن أسلوب ابن العديم لما فيهما من الضعف والركاكة والسجع المسف البعيد عن الطبع .

هذا هو ابن العديم كما عرفناه المؤرخ والشاعر والعالم قضى حياة مليئة غنية . أمدت مكتبتنا بأثاره ومؤلفاته التي لاتزال تشهد على ما كان لابن العديم من أثر في اغناء تراثنا العربي .

قضى حياة مديدة ، لكن الآلام والأحزان والصدمات ولاسيما الألم البليغ الذي سيطر على الشاعر بعد زيارة حلب سنة ٦٥٨ هـ . جعله يترك البلد الذي أحب ويشد عصا الترحال الى بلد ينسيه أحزانه ويعوضه أهله وأحباءه . فمضى الى مصر وهناك وفي سنة ٦٦٠ هـ . فارق الحياة حيث أودع جده الطاهر في سفوح جبل المقطم في القاهرة وصلي عليه في دمشق صلاة الغائب ، وراثه شعراء كثيرون .

سليمى محبوب

(١) من مخطوطة لابن خطيب الناصرية ، موجود بمكتبة الأوقاف في حلب ج ١ ورقة ١ ظ .